رسالة

في الخوف من الموت وحقيقتهِ وحال النفس بعدهُ

نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

بين المخطوطات العربيَّة التي دخلت منذ عهد قريب في خزانة كتب باريس السمويَّة (Bibl. Nationale, Mss. Arabes, n° 4946) مجموع نفيس صغير الحجم يبلغ عدد صحائفهِ ٨٧. [illegible] العدد ٤٩٤٦ والذي لم يذكر في تلك المخطوطات المطبوعة التي لا يتجاوز عدد موسوعاتها ٤٦٦٥. وليس لهذا الكتاب تاريخ معلوم وانما هو من القرن الخامس عشر كما يدلُّ عليهِ ورقهُ الصفيق وحبرهُ. وقد اتقن الناسخ خطهُ واحسن ضبطهُ. اما مضمونهُ فجمع مقالات قديمة في الحكمة والرياضيَّات وتحريك الاثقال منها مقالة بديعة في القرسطون اي الميزان لثابت بن قرَّة ننشرها قريباً ان شاء الله. ومن افضل محتويات هذا المجموع رسالة فلسفيَّة فريدة في بابها نسخناها في رحلتنا الحديثة الى باريس اسمها « رسالة في الخوف من الموت وحقيقتهِ وحال النفس بعدهُ » قصد بها صاحبها بيان الاسباب التي تحمل الانسان على الخوف من الموت ثم البحث عن الادوية التي يمكنهُ ان يداوي بها نفسهُ من هذا الداء. اما مؤلف الرسالة فسلمٌ كما يظهر من فاتحة الرسالة وقد راجعنا مؤلَّفات مشاهير فلاسفة المسلمين كالشيخ الرئيس ابن سينا ويعقوب الكندي وابي نصر الفارابي وابي الريحان البيروني والامامَيْن الرازيين لعلَّنا نجد في تآليفهم ذكرًا لهذه الرسالة فخاب املنا لكنَّنا لا نشك باتَّها لاحد فضلاء ارباب الحكمة وكفى دليلًا على ذلك قدم الكتاب وحسن طريقة الكاتب في تنسيق براهينهِ واثبات حجَّتهِ والظاهر انَّ المؤلف كان من اهل القرن الخامس لما يذكرهُ في رسالتهِ من الزمان بينهُ وبين عليّ بن ابي طالب اعني اربعمائة سنة. ونحن نقدِّم هذا الاثر لقرَّائنا في اوَّل الشهر المخصَّص بذكر الموتى ليروا انَّ الخوف من الموت من الأدواء التي يستطيع الانسان ان يشفيها بحكمة العقل فما نوالك بنعمة الدين القويم الذي يعلِّم المسيحي بان هذه الحياة دار بلغة وسفر للاخرة أُعطيها الانسان ليجاهد في سبيل البرّ ويكتسب رضوان خالقهِ بحسن سلوكهِ فيثيبهُ الله عن اعمالهِ الصالحة في العالم الباقي وان لم يجعل حقَّ لهُ الخوف من الديَّان العادل الذي يطالبهُ عن سيّئاتهِ ولا يدع آثامهُ دون عقاب فان سار المرء بموجب هذه التعاليم وسلك طريق البرّ وحاد عن الاثم أمن خوف الموت وربَّما رغب فيهِ كالرسول (فل ١ : ٢٣) الذي كان يودّ انحلال جسده ليحظى بالمسيح. ارشدنا الله الى حفظ وصاياه ونوال جزائهِ

(74ظ) بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين وصلواتهُ على محمَّد وآله الطاهرين

لمَّا كان اعظم ما يلحق الانسان من الخوف هو الخوف من الموت وكان هذا الخوف عامًّا وهو مع عمومهِ اشدّ وابلغ من جميع الخاوف وجبَ ان اقول: انَّ الخوف من الموت ليس يعرض الَّا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة او لا يعلم الى اين تصير نفسهُ. او لأنهُ يظنّ اذا انحلَّ وبطل تركيبهُ فقد انحلَّ ذاتهُ وبطلت نفسهُ بطلان عدم ودثور وانَّ العالم سيبقى بعدهُ كان هو موجودًا او ليس هو موجودًا كما يظنُّهُ مَنْ جهلَ بقاء النفس وكيفيَّة معادها. او لأنهُ يظنّ انَّ للموت ألمًا عظيمًا غير الامراض التي ربَّما تقدَّمتهُ وادَّت اليهِ وكان سبب حلوله. او لأنهُ يعتقد عقوبةً تحلُّ بهِ بعد الموت. او لأنهُ متحيّر لا يدري الى ايّ شيْ يقدم بعد الموت. او لأنهُ يأسف على ما يتخلَّفهُ من المال والقينات. وهذه كلها ظنون (75ظ) باطلة لا حقيقة لها

أمَّا مَن جهل الموت ولم يدرِ ما هو فانا أُبيّن لهُ انَّ الموت ليس بشيْ اكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الاعضاء التي مجموعها يسمَّى بدنًا كما يترك الصانع مثلًا استعمال آلاتهِ. فانَّ النفس جوهر غير جسمانيّ وليست عرَضًا وانها غير فاسدة وهذا البيان يحتاج الى علوم تتقدَّمهُ وذلك مبيَّن مشروح في موضعهِ. فاذا فارق هذا الجوهرُ البدنَ بقي البقاء الذي يخصُّهُ ونُقيَ من كدر الطبيعة وسَعِدَ السعادة التامَّة. ولا سبيل الى فنائهِ وعدمهِ فانَّ الجوهر لا يفنى من حيث جوهرهِ ولا تبطل ذاتهُ وانَّما تبطلُ الاعراض والخواصّ والنسب والاضافات التي بينهُ وبين الاجسام باضدادها. فامَّا الجوهر فلا ضدَّ لهُ وكلُّ شيْ يفسدُ فانَّما يفسد من ضدّهِ وانت ان تأملت الجوهر الجسمانيّ الذي هو اخسُّ من ذلك الجوهر الكريم واستقرا (واستقرأتَ) حالهُ وجدتهُ غير فانٍ ولا يتلاشى من حيث هو جوهر وانَّما يستحيل بعضهُ الى بعض (75ظ) فيبطل خواص شيْ شيْ منهُ واعراضهُ. فامَّا الجوهر نفسهُ فهو باقٍ ولا سبيل الى عدمهِ وبطلانهِ.

الجوهر الروحاني الذي لا يقبل استحالةً ولا تغيُّرًا في ذاتهِ وانما يقبل كمالاتهِ وتمام صورتهِ فكيف يُتوهَّم فيهِ العدم والتلاشي

واما من يخاف الموت لأنهُ لا يعلم الى اين تصير نفسهُ او لأنهُ يظنّ انَّ بدنهُ اذا انحلَّ وبطل تركيبهُ فقد انحلَّ ذاتهُ وبطلت نفسهُ وجهل بقاء النفس وكيفيَّة المعاد فليس يخاف الموت على الحقيقة وانما يجهل ما ينبغي ان يعلمهُ فالجهلُ اذن هو المَخُوف اذ هو سبب الخوف. وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب فيهِ وتركوا لاجلهِ لذّات الجسم وراحات البدن واختاروا عليهِ النصَب والسهر ورأوا انَّ الراحة الحقيقيَّة التي يُستراحُ بها من الجهل هي الراحة بالحقيقة وانَّ التعب الحقيقي هو تعب الجهل لانهُ مرضٌ مُزمن للنفس والبرءُ منهُ خلاصٌ لها وراحة سرمديَّة ولذَّة ابديَّة. فلمَّا تيقَّن الحكماء ذلك واستبصروا بهِ (76ا) وهجموا على حقيقتهِ ووصلوا الى الروح والراحة هانت عليهم امور الدنيا كلها واستحقروا جمع ما يستعظمهُ الجمهور من المال والثروة واللذّات الحسيسة والمطالب التي تؤدي اليها اذ كانت قليلة الثبات والبقاء سريعة الزوال والفناء كثيرة الهموم اذا وُجدت عظيمة الغموم اذ فُقدت فاقتصروا فيها على المقدار الضروري في الحياة وتسأموا من فضول العيش التي فيها ما ذكرتُ من العيوب وما لم اذكرهُ ولأنها مع ذلك بلا نهاية. وذلك انَّ الانسان اذا بلغ منها الى غاية تداعت الى غاية اخرى من غير وقوف على حدّ ولا انتهاء الى أمد وهذا هو الموت لا مخافة منهُ والحرصُ عليهِ هو الحرص على الزائل والشغل بهِ هو الشغل بالباطل. ولذلك جزم الحكماء بانَّ الموت موتان موت إرادي وموت طبيعي وكذلك الحياة حياتان ارادية وطبيعيَّة وعنَوا بالموت الارادي اماتة الشهوات وتَرْك التعرُّض لها وعنَوا بالحياة الارادية ما يسعى لها الانسان في الحياة الدنيا من المآكل والمشارب (76ب) والشهوات وبالحياة الطبيعيَّة بقاء النفس السرمدي في الغبطة الابديَّة بما يستفيدهُ من العلوم وبراءتهِ من الجهل ولذلك وصّى افلاطون الحكيم طالب الحكمة بان قال لهُ: مُتْ بالارادة تحيَ بالطبيعة

على انَّ مَن خاف الموت الطبيعي من الانسان فقد خاف ما ينبغي ان يرجُوهُ (١

١) في قول المؤلف هنا نظرٌ فانهُ (اوّلًا) يجعل حدَّ الانسان «حيٌّ ناطقٌ مائتٌ» والفلاسفة يحدُّونهُ «حيٌّ ناطقٌ» اما المائت فلا يدخل في جنسهِ وفصلهِ وان كان الموت من خواصّهِ

وذلك انَّ هذا الموت هو تمام حدّ الانسان لانهُ حيّ ناطق مائت فالموت تمامهُ وكمالهُ وبهِ يصير الى أفقهِ الاعلى . ومن علم انَّ كل شيءٍ مركّب من حدّهِ وحدُّهُ مركّب من جنسهِ وفصلهِ وانَّ جنس الانسان هو الحيّ وفصولهُ هو الناطق والمائت علم انهُ مستحيلٌ الى جنسهِ وفصولهِ لانَّ كل مركّب لا محالة يستحيل الى شيءٍ الشيءُ الذي منهُ تركب فمَنْ أجهلُ مَن (ممَّن) يخاف تمام ذاتهِ ومَنْ اسوأ حالاً ممَّن يظنُّ انَّ فناءهُ بحياتهِ ونقصانهُ بتمامهِ . وذلك انَّ الناقص اذا خاف ان يتمّ فقد حلَّ من نفسهِ على غاية الجهل فاذن يجب على العاقل ان يستوحش من النقصان ويأنس بالتمام ويطلب كلَّ ما (77r) يتمّمهُ ويكمّلهُ ويشرّفهُ ويُعلي منزلتهُ ويحلُّ رباطهُ من الوجه الذي يأمن بهِ الوقوع في الأسر لا من الوجه الذي يشدُّ وثاقهُ ويزيدهُ تركيباً وتقييداً ويثق ان الجوهر الشريف الالهي اذا تخلّص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاصَ نقاء وصفوٍ لا خلاصَ مزاج وكدر فقد سَعِدَ وعاد الى ملكوتهِ وقرب من بارئهِ وفاز بجوار رب العالمين وخالط بين الارواح الطيبة من اشكالهِ واشباههِ ونجا من اضدادهِ واغيارهِ . ومن هاهنا تعلم انَّ من فارقت نفسهُ بدنهُ وهي مشتاقة اليهِ مشفقة عليهِ خائفة من فراقهِ فهي في غاية الشقاء والالم من ذاتها وجوهرها سالكة الى ابعد جهاتها من مستقرّها طالبة قرارها ولا قرار لها

أمّا ما يُظنّ انَّ للموت ألماً عظيماً غير ألم الامراض التي ربَّما تقدّمتهُ وادّت اليهِ

الطيبة . (ثانياً) ليس بصحيح انَّ بالموت تمام الانسان وكمالهُ لانَّ الانسان بخالف الارواح المجرّدة التي لم تُخلَق لترتبط باجساد هيولية ولها حياة خاصة بها . امّا الانسان فانَّ نفسهُ لا تنال معارفها تامّاً من المعلومات ولكن بتوسّط الحواس التي تشاهد المظهرات المحسوسة وتتقدّمها للنفس فالنفس تجرّدها عن الهيولي لتدرك جواهرها . فاذا مات الانسان وبطلت الحواس فقدت النفس آلتها لمعرفة المحسوسات . فمن هذا القبيل الموت نقص للانسان ليس بكمال . (ثالثاً) تفيدنا الاسفار المقدّسة انَّ الموت انَّما دخل العالم كعقاب الخطيئة وليس الثواب كالاً . (رابعاً) لا ننكر انَّ النفس الروحانية يمكنها ان تحيا دون الجسد الهيولي الّا ان النفس بافتراق جسدها تصير في حالة غالفة لكيانها الطبيعي اذ تعيش دون رفيقها الذي خُلق لاجلها وخُلقت لاجلهِ فلا تزال تحنُّ الى مركّبها الاصلي . (خامساً) تتّفق كل الاديان على حقيقة البعث وقيامة الاجساد في يوم الدين . فلو كان الموت كمالاً لكان اولى بالانسان ان لا تُبعث الاجساد لتبقى النفس في كمالها وهو قول باطل . على انَّنا نعلم انَّ اجسادنا ستقوم في حالة المجد فلا تعوق النفس عن حياتها الالهيّة وتنال هي ايضاً نصيبها من سعادة النفس

فقد ظنَّ ظنًّا كاذبًا لانَّ الالم انَّما يكون للحيّ والحي هو القابل اثر النفس فاما الجسم الذي ليس فيهِ اثر النفس فانهُ لا يألم ولا يحسّ فاذن الموت الذي هو مفارقة النفس البدن (77ظ) لا ألم لهُ لانَّ البدن انما كان يألم ويحسّ بالنفس وحصول اثرها فيهِ فاذا صار جسماً لا اثر فيهِ للنفس فلا حسَّ لهُ ولا ألم فقد تبيَّن انَّ الموت حال للبدن غير محسوس ولا مؤلم فانهُ كان يحسّ ويألم بهِ

واماً من خاف الموت لاجل العقاب فليس يخاف الموت بل يخاف العقاب والعقاب انَّما يكون على شيءٍ باقٍ منهُ بعد الموت فهو لا محالة يعترف بذنوبهِ وافعال سيئة يستحقّ عليها العقاب وهو مع ذلك معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات فهو اذن خائف من ذنوبهِ لا من الموت ومن خاف عقوبتهُ على ذنبٍ وجب عليهِ ان يحترز ذلك الذنب ويجتنبهُ والافعال الرديئة التي تسمَّى ذنوباً انَّما تصدر عن هيئات رديئة والافعال الرديئة التي هي النفس هي الرذائل التي احصيناها وذكرنا اضدادها من الفضائل فاذن الخائف من الموت على هذه الوجوه وهذه الجملة هو جاهل ما ينبغي ان يخاف منهُ وخائف مما لا اثر لهُ (78ظ) ولا خوف منهُ. وعلاج الجهل العلم ومن علم فقد وثق ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها ومن سلك طريقاً مستقيماً الى غرض انفضى اليهِ لا محالة وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين وهو حال المستيقن في دينهِ المستكمل بحكمتهِ

واماً من زعم انهُ ليس يخاف الموت وانَّما يحزن على ما يتخلَّفهُ من اهل وولد ومال وتأسف على ما لا يفوتهُ من ملاذّ الدنيا وشهواتها فينبغي ان يُبيَّن لهُ انَّ الخوف لاجل ألم ومكروه على ما لا يجدي عليهِ الخوف طائلًا وانَّ الانسان من جملة الامور الكائنة وكل كائن فاسد لا محالة فمن احبَّ ان لا يفسد فقد احبَّ ان لا يكون ومن احبَّ ان لا يكون فقد احبَّ فساد ذاتهِ وكانهُ يجبُّ ان يفسد وان لا يفسد ويحبّ ان يكون وألَّا يكون وهذا محال

وايضاً لو جاز ان يبقى الانسان لبقي من كان قبلنا ولو بقي الناس على ما هم عليهِ من التناسل ولم يموتوا لمَا وسعتهم الارض وانت تتبيَّن ذلك مما اقول. ترى لو انَّ رجلًا واحدًا (78ظ) ممَّن كان منذ اربعمائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن ان يحيا اولادهُ موجودين كامير المؤمنين عليّ رضيَ الله تعالى

عنه . ثم ولد له اولاد ولاولاده اولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم احد كم مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا فانك تجد اكثر من عشرة آلاف الف رجل وذلك ان نقيتهم (بقيتهم) الآن مع ما اصابهم من الموت والقتل اكثر من مائة الف رجل . واحسب كلٌّ من في العصر كذلك فانهم اذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة . ثم امسح بسيط الارض فانهُ محدود معروف المساحة لتعلم انَّ الارض لا تسعهم قياماً متراصين فكيف قعوداً او متفرّقين ولا يبقى موضع لعمارة تفضل عنهم ولا مكان لزراعة ولا مسير لاحد وذلك في مدَّة يسيرة من الزمان فكيف اذا امتدَّ الزمان

فهذه حال من يتمنَّى الحياة الابديَّة ويكره الموت ويظنّ ان ذلك ممكن من الجهل . فاذن الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير (79ا) الالهي هو الصواب الذي لا معدل عنهُ وهو غاية الجود الذي ليس وراءهُ غاية فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الله وحكمته بل هو الخائف من جودهِ وعطائهِ فالموت اذن ليس بردّى وانما الردى هو الخوف منهُ فانَّ الذي يخاف منهُ هو الجاهل بهِ وبذاتهِ وحقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن . وفي هذه المفارقة ليس فساد للنفس وانَّما هو فساد التركيب فاما جوهر النفس الذي هو ذات الانسان ولبُّه وخالصته فهو باقٍ وليس بجسم فلزم فيه ما لزم في الاجسام بل لا يلزم شيءٌ من اعراض الاجسام اي لا يتزاحم في المكان لانهُ لا يحتاج الى مكان ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائهِ عن الزمان وانَّما استفاد هذا الجوهرُ بالحواس والاجسام كمالًا فاذا كمل بها ثم تخلَّص منها صار الى عالمه الشريف القريب الى بارئهِ ومنشئه عزَّ وجل والرجل الذي يتصدَّق عن اخيه الميت ويقضي عنهُ الدين يسعد بذلك الميت وذلك انَّ النفس ان كانت واحدًا كما زعم (79ب) جماعة (١ فالمتصدق نفسهُ وتلك الاخرى وباثرُها شيء واحد وان كانت غير واحدة فلا يفضل المتصدّق ذلك الفضل الَّا بمشاكلة تلك النفس وعلى هذا ايضاً شُبّه بشيء واحد والسلام

تمَّت الرسالة والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعدهُ وآله وصحبه وسلم

١) هذا زعم باطل قال بهِ بعض الفلاسفة القدماء والقول الصحيح انَّ النفوس مع وحدة الطبيعة البشرية تتفرَّد في كل انسان وتسعد او تشقى باعمالها لا باعمال غيرها